

الفصل الأول

العييب

- ١- الانقسام الخلقى .
- ٢- السقوط .
- ٣- إعادة التشكيل .
- ٤- الصراع .

obeikandi.com

انطلاقاً من تجريم السلوك الخطأ . ليس لأنه خرقاً لقانون وضعه المجتمع ليعاقب كل من تسول له نفسه تجاوز ما حدده ، ولكن لأن هذا السلوك خطأ في حد ذاته . ينبغي على الإنسان تجنبه بغض النظر عن الإضرار التي قد تلحق به أو العقوبات التي قد تنزل به . وضع القاص هذا العنوان لروايته .

فقد يستطيع الإنسان أن يغافل المجتمع ، وأن يرتكب ما يشاء . وقد يستطيع - وقد أوتي قدر من الذكاء - أن ينسل من بين فقرات القانون ولا يقع تحت طائلة العقاب ، وهنا يكون المبرر موجوداً لارتكاب ما يخالف القانون .

ولكن اليس هناك رادع يردع الإنسان غير القانون ؟

ألا يمتنع الإنسان عن الجرم إلا إذا كان هناك عقاب رادع له ؟

الأمر مع الإنسان ليس ارتباطاً شرطياً كحيوان (بافلوف) ، لا يفعل الشر لأن هناك عقاب ، أو يفعل الخير لأن هناك ثواب ، ليس الإنسان - أرقى المخلوقات - مثل الحيوان الأعجم ، ذلك لأن في داخله محكمة كاملة ... تجرم وتدين وتحكم وننقد . تلك المحكمة هي الضمير الحي للإنسان والذي يستلهمه الفرد في معرفة الغيب ... وما ليس بغيب .

١- الانفصام الخلفي :

بصطدم (سنا) بالواقع الفاسد محاطاً بها ، يريد بتياريه الجارف أن يتلعبها لتكون من ضمن العرقى ، وتقف على شط هذا الواقع حائرة ، منكبة :

فأما أن حياتها بكل ما حوت لا تساوى شيئاً إزاء هذا الواقع الجديد عليها

في المصلحة التي تعمل بها ؟

أو أن حياتها هي الحياة الحقّة . وواقع المصلحة واقع شاذ منحرف ليس
بينه وبين العالم الذي نشأت فيه من قبل أي صلة ؟

وليس المشكل هنا . فنحن لا نعجب إن صادفنا فساداً . فالأشياء تدرك
بنقائضها . ووجود الفساد في مكان ما لا يعد شيئاً مستغرباً . طالما هناك معادل
موضوعي لإنكار هذا الفساد لدى الإنسان . وهذا نوع من الرفض السلبي للواقع
المتخّم بالفساد (فإن لم يستطع فقلبه وهو أضعف الإيمان) . وإنما المشكل أن
يوجد الفساد والانحراف ويوجد ما يبرره ويعطي له نوعاً من المعقولية التي تضيء
عليه غلالة رقيقة من الشرعية . حينئذ يلتبس الحق بالباطل . ويدلّم الإنسان بين
شعاب الخطأ والصواب .

وأن يتطرق الفساد إلى فروع الشجرة . هذا لبس بشيء . فقد تصح تلك الأفرع
بعد حين . أو تستر ويخرج غيرها صالحاً من غير سوء . أما أن يزحف الفساد
إلى العمق . إلى الجذر . فهذا هو الفساد الأكبر . الذي لبس صلاحاً بعده . ويوم
يقتنع الإنسان أو يقنع غيره بسلوك منحرف لهو أكبر دليل على فساد الإنسان
وعلى ما يحيط به من واقع فاسد كان له نصيب أو وافر في إحضاره على سلوك ذلك
المسلك .

فحينما رفضت (سناء) الاشتراك مع جماعة المكتب التي تبيع التصاريح
حاول الناشكاتب أن يبصر (سناء) ويفل أن بدأ معها . صفحة 1 (79)

” سألتها صفوت أفندي الناشكاتب أول ما سألنا عن رأيها فيه . أوسىء؟ أي
ملامحه أو تصرفاته ما يوحى بالجريمة والإجرام ؟

أجابت (سناء) بالنفي ، فالباشكاتب قد بدا لنا طوال عملها معه وخوفه من الله والحساب والميزان لا يقل عن خوف عالم متحرف في الدين ، ما الذي يدفع رجلا هذا شأنه إذن إلى أن يكون شريكا في عمل قدر تأباه النفوس ؟ "

سؤال قديم قدم الخطيئة ، ما الذي يدفع الإنسان إلى الخطأ... أهو طبع الإنسان ؟

أم الواقع المسلط على رقبته ؟

وإذا كان الواقع فأين إرادة الإنسان ؟

يقول (صفوت أفندي) مبرراً ما يفعله هو والآخرين : " الدنيا يا سناء يا بنتي ، العيشة ... أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيه و ٢٣ ملبما ومصاريف بيتي ما تقلش عن ٥٠ أو ستين ن عندي ولدين في الجامعة ، وبنتين وولد في النانوية ، وبنيت في المعهد وعيلين في ابتدائي ، ولي اخت مطلقة وقاعدة معا هي وأولادها ثلاثة ن منهم واحد طلعهنا من المدارس وبيشتغل عامل في مصنع ... ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه . ومع كده إيجاره ثمانية جنيه ويبقى بند الأدوية ن بس بيأخذ منا بالبيت جنيه في الشهر غير الدكاترة ، لو في مكاني تعملي إيه ؟) .

إذن هي قسوة الواقع على الإنسان ، يدفعه إلى ارتكاب ما يرتكبه ، ويعري الإنسان نفسه بأنه يفعل هذا ليس لحاجة في نفسه ، وإما لأجل غيره ، فهو مضطر ويأتي رد (سناء) على هذا التبرير بقولها : " اعمل أي حاجة لإكده ، أعلم ولادي بفلوس حرام ؟ أطلعنهم من المدارس أحسن وأشغلهم .

فهقه الباش كاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح :

- لورضيت أنا أمهم ح ترضى . ولورضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم ؟
ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا إيه ؟ ح يكسبوا إيه ؟ "

فالشخصية هنا محاطة بأكثر من جهة تدفعه وتحضه . وهو لا يملك إلا أن يسير في ذلك الطريق ، وكل ما يفعله نوعا من التبريرية الزائفة .

أيمكن أن يزحف الفساد إلى جوهره . إلى قلبه . فيقتنع به اقتناعًا كاملاً ؟

هنا يحدث الانفصام الخلفي . أن ينقسم الواحد إلى اثنين . فرد يرتكب ما يرتكبه . والآخر يعارضه معارضة كاملة ، وبهذا يحدث التراضي والتعادل السلمي بين الإنسان وبين واقعه ، وإذا ما سألت كيف يكون هذا الإنسان فردًا واحدًا . فأما أن يكون الإنسان مفسدًا أو مصلحًا . كان جوابه المثل اللذيذ الذائع :
(دي نقرة ودي نقرة) .

وقد يكون هذا الانفصام انتصارا من الإنسان النقي على واقعه القدر أو تحدي نظري للفساد أن يتطرق إلى جوهره فيبدسه . فالإيمان والأخلاق والقيم موحودة ولكن ليس لها أي أثر عملي . فهي كالكتب المرصوفة على أرفف المكتبة محرد أسماء دللما لم تمتد إليها اليد . فالواقع بقمامته يمنع تلك القيم أن يكون لها أثر في محيط الإنسان . وهو لا يعترف إلاً اعترافا نظريا فقط . وذلك نوع من التوافق الإنساني مع واقعه . ولكنه توافق قائم على التعارض الصارح ، نتج عنه نفع في كل شيء ، فالواقع فاسد ، والأخلاق والقيم موجودة ، ولكن لم نقم بدورها في إصلاح الواقع . وهذا من شأنه أن يضفي غشاوة من عدم الاهتمام واللامبالاة بالقيم

ويستبدل بالقيمة أشياء أخرى من أهمها المال ، فلا قيمة للعلم ، ولا للأدب ولا للأمانة ولا للإخلاص ، القيمة الوحيدة هي المال .

فالتاجر لا يرى غضاضة أن يخرج من المسجد بعد أن أدى فريضة الصلاة لربه . لا يجد غضاضة أن يغش فيما يبيعه ، فالصلاة شيء والتجارة والربح الوفير شيء آخر . فإيمان هذا التاجر لم يتعد القول أو الفعل الأجوف إلى الفعل الإيجابي وهذا ما اكتشفه نساء المصلحة و (سناء) حينما ذهبن يوم الأحد للاحتفال بعيد ميلاد زميلتهن (يسرية) وأخذن يتحدثن عن هذا الانفصام الخلفي ، صفحة (١٩) :

' - عندنا محمد أفندي راجل زي أولية الله تمام حاجج مرتين وطول النهار السنحة في أيده ن وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ما يصحش ، والمصيبة أنه مش بيدعي . ده جد تلقيه كريم وعنده نخوة وشرف ونبيل ، أل أعرف لك بعد كل ده أنه بياخذ على كل استمارة جنيه ، معتبرها عيب وكل حاجة ، إنما يقول لك على رأيه : (هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة) .

- ونروح بعيد ليه ؟ رئيس الإدارة بتاعتكم يا سناء بيلعب بوكر بدينه . وقال إيه قتل ما يلمس الورق لازم يقرأ الفاتحة .

وتدخلت نور صاحبة الحفلة

- طيب أنا بعيني بقى شفت الحكاية دي ، الراجل اللي ساكن تحتنا ده موطف في شركة ن لو كنتم هنا إمبراح كنتو سمعتوا الصراخ جايب من آخر الشارع وكل يوم والتاني مولد بالشكل ده وعلشان إيه ده كله ؟ حضرته بينزل

ضرب في ابنه لما يجي متأخر من برة . ومتأخري عنده يعني بعد الساعة عشرة كويس كده ؟ إيه رأيكم لبنا واحد قربنا بيشتغل معاه لما سمع الحكاية دي مات م الضحك وقال مش معقول ده . أي حد تاني معقول . إننا الراجل ده بالذات ده معروف عنه زي الشمس بيورد الستات لكل الموظفين الكبار في الشركة .

- ومستغربة ليه ؟ هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة .

- وارتفعت ضحكاتهن عالية . وما لبثت سناء أن قالت مواصلة نغمة السخرية :

- الظاهر الرجالة دول عندهم لكل مبدأ دوسيه ...الشرف في بيته غير الشرف في عمله . والحرام في الليل غير الحرام في النهار . والفضيلة ما تمنعش الرذيلة كله موجود في حالة تعايش سلمي .

ثم اعتدلت حادة لتكمل أرائها (الفلسفية) بقصة حقيقية عن رئيسها عم صفوت أفندي الرجل الذي هدد عليها كالأب وحاول أن يقنعها باقتسام الرشوة والذي لا تخلو جملة من جملة من حديث شريف أو آية قرآنية . من يومين كان صفوت أفندي يحكي لي كيف اكتشف مرة مع ابنه الصغير إصنع طناشير ملون سألته عن مصدره فتلجلج ن وحقق معه فعرف أنه أحده من صندوق الطناشير في حجرة الرسم دون علم المدرس ...وكيف طلل ساعة يشرح له خطأه ويوضح له الجريمة التي ارتكبها . وكيف أمره في النهاية أن يذهب في الغد إلى المدرس يعترف له بما حدث ويرد له الأصنع وكيف لم يفعل الولد . وكيف ضربه وأخذه من يده في الصباح وذهب معه إلى المدرسة وجعله يعترف للمدرس أمامه بما فعله وطلب

الصفح والمغفرة . قصة من فم عم صفوت أفندي . حكاها عرضا ودون أن يكون له من وراء حكايتها هدف ن وعم صفوت أفندي هذا لا يجد عيبا أبداً في الحصول بطريقة غير شريفة بالمرّة على نقود تشتري آلاف أصابع الطباشير ؟ وأنهدت سناء قصتها قائلة : أنها لا تزال إلى الآن حائرة مع صفوت أفندي لا تعرف كيف تحكم عليه والمنطق والعقل حين تنهي عن الشيء بحرارة وصدق حقيقيين في نطق وحرارة وصدق ترتكبه في نطق آخر؟ كيف تحكم عليه ؟) .

إن الشخصية إذ تفصل بين ما تؤمن به وما تمارسه بالفعل ، تفعل ذلك لا لشيء إلا لكي تتجنب عقابها لذاتها ، فهي أمار حارين ؛
الأول : أن يخفف من حدة وكثافة الجرم ويفرغه من محتواه بالأسلوب التبريري .
الثاني : أو يتجاهل تجاهلاً تاماً هذا التعارض الحاد بين ما يؤمن به وبين ما يمارسه ، وهذا بمثابة الدفاع الذاتي ، ليتجنب الشخص الوقوع تحت تأنيب الضمير الذي لا يستطيع الهروب منه ليلاً أم نهاراً .

وتخفيف الجرم والتجاهل يبقى عقاب الذات للذات معلقاً ، أو يبقى في منطقة الطل لا يتحرك ، وإذا ما عثرت الشخصية على شخصية أخرى تماثلها في الانحراف ، وجب حينئذ عقاب الذات للذات ، فالأب الذي يعمل قواداً في الشركة يعاقب ابنه عقاباً شديداً لمجرد تأخره في العودة إلى البيت إلى العاشرة والباشكاتب صفوت أفندي يقف أمام ابنه الذي سرق أصبع الطباشير موقف القاضي الحازم الصارم الذي لا تأخذه رافة في حدود الله ، ويمعن في هذا ويأخذه ويذهب به ليعترف أمام المدرس أنه سرق أصبع الطباشير .

فالأب هنا - في الحالتين - ينتقم من نفسه في صورة ابنه لقد رأى نفسه المنحرفة في ابنه ، فليعاقب ذاته من خلال عقابه له ، وليشدد في العقاب ، فهو يعد ذلك بسبيله إلى الراحة ، ألم يعاقب ذاته على ما فرطت فيه ؟ فقد يحلل الإنسان لنفسه شيئاً حرمه على الآخرين ولا تعارض بين الموقفين ، فقد ارتكب خطأ بأن حلل لنفسه شيئاً ، وعاقب نفسه في هذا بأن حرمه على الآخرين ، ولا انفصال - في رأيه - بين ذاته ونوات الآخرين .

وشخصية الباش كاتب تجسيد حي لهذا الانفصام ، وظهر ذلك من خلال محاورة (سناء) له ، حينما ردت على مظهره شيئاً (ص ١٧٠) ، " - بس دي حريمة ...سرقة ...وأنت رجل طيب . دا كأنك يتمد إيدك في حبيب واحد لا مؤاحدة يعني ..ويتنشل منه فلوس ن إزاي ترضى تعمل كده ؟

- يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة ، وأكل العيش حاجة تانية .
- أكل العيش حتى بالسرقه ؟
- يا بنتي إنتي لسة صغيرة ع البر ما شلتيش هم المسئولة لما تكوني مسئولة عن حبش زي اللي أنا مسئول عنه وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين لك . مش ح نسبها سرقة أبدا ، أنا بسرقة مين ؟)
- وكأن (سناء) اقتنعت في النهاية بهذا المدأ التبريري . فبعد ما سألتها الداشكاتب هل ستنفذ ما قالت له للجندي . (- أنا قلت له كده عشان هو ...هو مش محتاح زيك وأخلاقه وحشة)

وحينما تجتمع مجموعة من الناس ، وتقر عمل من الأعمال . هذا الإقرار يعطي نوعاً من الشرعية لهذا العمل الذي تزاوله تلك الجماعة . بغض النظر عن هذا العمل أهو خطأ أم صواب . فالذي يعطي تلك المعايير هي الجماعة المزاولة للعمل فرب عمل ما يكون في مجتمع خطأ وعيب ، ونفس العمل في مجتمع آخر ليس بعيب ولا خطأ . والذي أوجد هذا الاختلاف هو موقف كلا المجتمعين من العمل .

فالأول اعترف به ، وأقره فأصبح خطأ .

والثاني لم يعترف به ، ولم يقره ، فأصبح عيباً وحراماً .

ولعظة العيب ليس لها رصيد إلا ما نعطيه لها الجماعة الإنسانية من تأثير يقول القاص في صفحة (١٧٢) : " كانت مزاوتهم لأعمال المكتب الثاني كجماعة قد أضفت على العمل نوعاً من القانونية ومحا عنهم كل أثر للإحساس بالذنب) .

وإذا وجد فرد يناقض تلك الجماعة في سيرتها . فهو الدليل الدامغ أمامهم على انحرافهم . وتبدأ الشرعية تتقوض شيئاً فشيئاً بعد أن كانت سائدة ، ولا يعكر صفوها شيء ، وإذا ما كانت (ساء) فعلى الجماعة المكتب . صفحة (١٧٢) : " سناء ووجودها واشمئزازها ونظراتها جعلت إحساساً جديداً يبدأ يزحف ... إحساساً بخرق القانون . بارتكاب معصية ! وقد تجسد هذا على هيئة ضيق شديد بسناء ووجودها ورغبة ملحة في التخلص منها " .

وبالرغم من أن سناء تعهدت لهم أنها لن تتدخل في شؤونهم . ولن تنخرط في عملهم . وأثرت الصمت . إلا أن مجرد وجودها السلبي هذا وصمتها كان له أبلغ الأثر في نفوس الجماعة . فهي - سناء - صفحة ماء صاف نقي ، ترى مجموعة

المصلحة على سطحها وجوههم النفة ، ونفوسهم الممتلئة بالدنوب ، المغلولة بالعيب ذلك لأنها تصدع جدران الشرعية الزائف الذي أقاموه بينهم ، باجتماعهم على فعل واحد ، والذي يضخم ويزيد من هذا الصدع أنها أنثى والمفروض أنها أضعف من الرجل . والرجل أقوى منها ، ليس في القوة العضلية فحسب ، بل في كل شيء وأهم شيء الإرادة ، إرادة مقاومة الانحراف والفساد ، فكيف لتلك الأنثى أن تقاوم وتقف وتعرض وتصر على ما لم يستطع عليه أولو القوة من رجال المصلحة؟! وهذا بمثابة العري الخلقى ، فالرجل قد يتعري أمام الرجل بدون أن يكون هناك خجل أما أن يتعري خلقيا على مشهد من أنتى فهذا أنكى وأشد على الرجل .

في صفحة (١٧٤) . " إن المدنوب لا يحسد البرئ ، إنه يكرهه ، ويحس به كأنه ضعيه . وكأن الضمير هو الجزء البرئ في قلب الذنوب . وسناء ذلك الركن الخامس البرئ في المكتب . كانت قد أصبحت كالضمير المقيم الذي لا يتحرك ، والذي لا تحفي عليه حافية ، والذي يقابل كل ما يدور أمامه بالصمت والسكون . ليتها كانت تتكلم أو تنصح أو حتى تشتم ، ليتها تفعل أي شيء . إلا أن تسكت والكارثة أنها ضمير مؤنث أن الرجل لا يخجل كثيرا أن يرتكب الخطأ أو الحماقة أمام زميله الرجل ، أي رجل ... ولكنه يخجل بشاعة أمام الأنثى أي أنتى " .

وهذا يلقي ضوء على نفسية المجتمعات الإنسانية ومكونات تفكيرها ونوازع تصرفاتها . ويؤكد أن أخلاق القطيع لا تنطبق على الإنسان ، فيكفي أن يسير فرد واحد في طريق مغاير حتى يسبب القلق والضيق والاضطراب لنقبة الجماعة وهذا يفسر مسارعة الجماعة لقتل الخارج عليها ، سواء كان الخارج هدا ثائرا أو نيبا أو مصلحا ، فهو يعطي نتيجتين:

الأولى : دليل حي على ضلال وانحراف الجماعة ، وكسر لشريعتهم ، يرون فيه كل ما يحاولون الهروب منه ، وكأنه لسعات ضمير قلق يريدون إخراسه إلى الأبد حتى لا يقض مضجعهم ويقلق راحتهم .

الثانية : إنه بمثابة شرارة نار مطهرة ، تنتقل إلى بقية الجماعة فرداً فرداً ، حتى تعطي الشرعية الكاملة للفعل المغاير لما تسير عليه الجماعة ، ومع مرور الوقت يزداد الفرد إلى اثنين وإلى ثلاثة وهكذا .

وبقيام الفرد بهذين العمليين يضطرب حال الجماعة وتدخل في طور من التغييرات ، وهذا ما ترفضه الجماعة المنحرفة منذ البداية .

(وكان طبيعياً جناً في مثل ذلك الجو أن تحدث ارتباكات في مزاولة العملية من محاولات كل منهم للتخفي واستدراج الزبون بأقل ما يمكن من الضجة وبسرعة لا تثير الانتباه ، وبالذات ابتعاد (سواء) هذه المحاولات كانت غالباً ما تفضّل وكثيراً ما تصدر من الزبون كلمة أو إشارة تفضح ، فيفقد الموظف أعصابه ويعدل عن الصفة نهائياً بين عجب الزبون ودهشته ، ويصر على أن يأخذ القانون مجراه وفي إصراره ذلك يرفع صوته ، ويعظ ويحاضر ، ويكاد يشهد الجدران والمكاتب والأثاث على ما يقول ، إنك بدأت تحدث منافسات وبدأ كل منهم يريد أن يبدو أكثر من الآخر غير أن القانون وفي مقابل هذا بدأت تحدث اتفاقات خاصة ن وبينما الواحد منهم يرفض في العلن ويصر على الرفض إذا به يتفق سرا مع الزبون ويتقاضى النمن وحده ، بعيداً عن أعين زملاءه ، بعيداً عن الركن الخامس) .

إنها بمثابة ضمير الجماعة ، الكل يخشاها ، الكل يريد أن يرضيها ، وإن لم يرضها فلا يريد أن يغيظها . وهذا الموقف يوضح أن ليس هناك مبرر أن ينحرف الإنسان بحجة أن المجتمع يقر ذلك ، أو لا يعاقب على ذلك ، ولتكن نقطة الإصلاح من حيث يقف هو ، بل لا يصح الإنسان سمه في موقف : إن صلاح المجتمع كله مناط بصلاحه ، وفساده متوقف عليه ، إنما مسئولية أخلاقية تحتم على الإنسان ألا يكون مستقبلاً فقط من المجتمع ، ويكفر بما يكفر به ، فكل إنسان به شيء من طليعة التوريي ، أن يعارض ويقول لا ، يكون المنطقة التي تؤكد الصواب من الخطأ ويوم أن يعرف المجتمع - معرفة يقينية - أن هذا صواب وذاك خطأ لن يجرؤ أي فرد على ارتكاب الخطأ .

وليس هذا بالموقف السهل ، فهو موقف بطولي ، ولبس كل الناس أبطال فهو والمجتمع حصان ، والويل لمن يكون خصماً للمجتمع ، فهو الشاد وهو المنحرف وهو المدنب ، وكل النفوت ملتصقة به ، فهو الذي بدأ معادة الجماعة وعليه أن يتحمل .

وكان هذا موقف (ساء) من جماعة المكث ، فيها هي شعراؤها مكرهة مسرلة ولحيرة صفحة ١٨٠) (ومن الثامنة والنصف يبدؤن في الحضور ومن أول الناشكانب إلى محمد الجندي أحر القادمين نخرج التحية فاترة لا روح فيها ولا طعم ، هذا إذا لم يتشاعل بعضهم عن قولنا أصلا ، لا تغيير !! وكأنها هي التي أدنست ، وكأنهم ليسوا المخطئين) .

إن قوة الجماعة لا يستهان بها في إجبار الفرد على قبول ما ترتضيه تلك الجماعة ، والمثل الشعبي يفلسف هذا الموقف بجلاء (كُـل ما يعجبك ، وألس ما يعجب الناس) فالمجتمع يريد كل أفرادَه متوافقين معه ، وليس من شاذ هناك .

٢- السقوط :

(سناء) فتاة طاهرة نقيّة ، أكثر ما نخشاه العيب والحرام ، رُبيت على الخلق القويم ، لم يعكر صفو تلك الطليعة إلا تجارب مبتورة الأوصال ، فعلاقة الحب التي نشأت بينها وبين طالب الطب حالما نبذتها عندما أصر هو على حب (الجسد) بينما هي لا تؤمن إلاّ بحب الروح ، والتجربة التي مرت بها مع زوج حالتها حينما أراد اغتصابها وقاومت مقاومة عنيفة . وكان مصدر مقاومتها مبرم الخرام عدها (٩٨) : (ولكن لا المفاجأة ولا الإطباق ولا السرعة التي حدثت بها الحادثة كانت السبب في رعبها ، الرعب الذي اجتاحتها وشل إرادتها وجعلها تناضل مناضلة النائم في كابوس يخرج عن حلقه صوت ، ولا يملك رفع أصبع ... هذا الرعب كان بسبب أكبر وأخطر . إنه زوج خالتها المحرم عليها والمحرمه هي كأمه كاخته كخالته- الرعب أن يسجل رجل لنفسه - أي رجل - مهما كان سيء السمعة والأخلاق مثله ، أن يفكر مجرد تفكير في الشيء الذي لم يفكر فيه لحظتها وإسا كان يفعلها) .

فهي تعطي للحدث أكبر قدر من الشاعة ، وتلك النظرة ناتجة عن نفسها التي وعت بعمق ذهنيا وفعليا مناطق العيب والحرام ، وألت على نفسها ألا تقترب من تلك المنطقة المحرمة عليها تحريما أبديا ، والأطر الأخلاقية لتلك الشخصية

وضحت بجلاء من خلال صراعها مع (محمد الجندي) ومقاومتها ورفضها الانخراط مع جماعة المكتب لبيع التصاريح .

ونلاحظ أن القاص منذ بداية الرواية يحشد تلك الشخصية بكل تلك القيم والبادئ الخلقية ، ويرفعها إلى مكان عال فوق الآخرين . ويجعلها الضمير الحي اليقظ في المصلحة ، ليصل الأمر أن الكل يخشونها ، ويتجنبونها لا لشيء إلا لقوة الخير وإرادة النعد عن الانحراف والفساد والعيب ، وهو إذ يفعل هذا يبدأ في طريق موازن نسح الخط الدرامي لشخصيتها . فهو لا يرتفع بها بكل ثقة واعتداد وفخر إلا ليلقيها بلا رحمة إلى أسفل سافلين .

ولكن أهذا يتفق مع المنطق الذي يعرضه العمل الفني ، ويؤيده الحدث الدرامي ... هذا المنطق الذي سنكتف بكل وصريح إذا ما سألنا أنفسنا

- لماذا نكصت (سناء) عن طريقها الذي كانت تسير فيه متحدية جماعة المكتب ؟

- وما سبب سقوطها ؟ هل يعرضها العمل الروائي أم هو مقحم على العمل من القاص ؟

من الميسور على الإنسان أن يؤمن بجملة من المبادئ والقيم . ولكن هذا الإيمان هش ، لبس له جذور . ما لم يكن محصلة تجربة مر بها الإنسان . وكانت تلك التجربة تضع الإنسان بين خيارين . وهذا الاحتيار له مسؤوليات لا مناص من تحملها . فإذا ما سار في الطريق إلى آحره بأن اختار بين البدائل وتحمل نتيجة هذا الاختيار ، بنفس واعية واقتناع كامل . فقد ثبت للابتلاء . وأيقن بأيمانه الراسع

وحلاوة ومتعة الإيمان بشيء لا تأتي إلا إذا نال الإنسان في سبيلها المشاق ، فهي تزيد من تمسكه بمبادئه التي يؤمن بها ، هذا التمسك مصدر المتعة التي يعيشها ، لأنه بهذا مع حقيقته وجوهره الذي خلقه الله عليه .

وقد كانت (سنا) تؤمن بتلك المبادئ التي تنأى بها عن الانخراط مع جماعة المكتب ... قد يكون موقف (سنا) هذا نوعاً من الخوف ، وهي الخام التي لم تدر شيئاً عن أساليب العمل في المصلحة ، إلى جانب أنها أنثى ، الخلقاً عندها له صورته المكبرة ، المحاطة بهالة من التحريم والعيب ، أو نوعاً من الترفع عن الخلق ليس إلا ، فهي ليست في حاجة أن تضع نفسها في موقف محاط بالشبهات ، وهي في غنى عما سوف تأخذه من ذلك ، أو تريد أن يكون لها ما يميزها عن جماعة المصلحة ، وهذا يخلق لها نوعاً من التفرد ، أما أن نقول أن إيمانها بقيمتها هو الذي منعها من أن تسير مع تيار موظفي المكتب ، فهذا ما نستطيع أن نجزم به .

ولكي نقف على حقيقة ودوافع الشخصية ، الأمر في حاجة إلى ابتلاء أو صراع أو شد وجذب ، وموقف حرج تكون فيه الشخصية ، ومن خلال تصرفها تتكشف دوافع ونوازع تلك الشخصية .

قَصّت (سناء) ليلة ليلاء حينما لم تستطع أن تدير مصاريف مدرسة أختها (أسامة) والتي بدونها لن يستطيع أن يدخل الامتحان ، ولا يستطيع - من خلال الأحداث - أن نقول أن بالقصة صراع ما ، فهو ليس موجوداً ، والشخصية لم تتعرض له ، فقد أثرت الشخصية من أول لحظة أن تتخلص وتختلى عما كانت تؤمن به ، في سبل أن تفر مصاريف أختها (١٠٢) .

(يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شيء في سبيل أن نحصل لأختها على قيمة القسط ، فليلة الأسس بكى لأول مرة تراء مند أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل . كانت تتناقش مع أمها في كيفية الحصول على النقود ، وطرقا بنقاشهما كل الأنواع والاحتمالات دون جدوى ، حتى بات واصحاً أن النقود لن تأتيهم إلا إذا فتح الله سبحانه سقف ححرتهم وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط . وكان النقاش قد استغرقها إلى درجة نسيا معها أن أسامة موحود حوارهما ، ولم يفلنا للوحيد . إلا حين سمعنا بكاءه ، والتفتا لتحدنا دموعه نلمع بكثرة ، فوق وجهه ، وحيبة الأمل مرتسمة بصورة واضحة تنطلقها رعم طغولتها الحرساء ملامحه ، ولحظتها صدر عن كل ذرة من كيانها قسم تلقائي دفاحي غير منطوق وبدون أن تعي أو تريد . قسم أنها لابد واحدة حلا .. لابد صابغة المستحيل وما هو أكثر منه كي لا يدرف أسامة دمعة أخرى ، أو نرسم على وجهه هذه الصورة الخرساء لخيبة الأمل) .

لقد انتهى الصراع قبل أن يبدأ ، بتخلي الشخصية عن كل ما تؤمن به من أول اختبار ، فقد كانت تظن أن الإيمان بقيمة بمثابة حلية تتحلى بها ، كأسورة أو خاتم بدون أن تعاني أو تقاسي .

فقد بحثت وسألت كل من تقابله كي تسدد قسط المدرسة ، ولكنها لم تجد فلا زميلتها (نور) ولا الباش كاتب ، ووجدت كل الأبواب قد سُدت في وجهها ولم يستطع أسامة دخول الامتحان .

ووجدت مشكلة أخرى بعد تغيبها عن عملها دون إذن ، فقد آلت على نفسها أن ترفه عن (أسامة) بعد اليوم العصيب الذي مر به ، ولكي تأتي بشهادة من طبيب ليحتسب اليوم أجازة يلزمها خمسون قرشا ، وظلت تلح على زميلتها حتى استطاعت أن نطفر بالخمسين قرشا وبالشهادة .

لقد قتل الموقف الذي مرت به كل نوازع الخير في نفسها ، وتخلت عن كل ما كانت تتمسك به من قيم ومبادئ ، فلم تصمد للتجربة ولم تعاند ولم تتحد ، وإسما انهارت من أول ضربة وُجِئت إليها ، وبدأت تنسى أفكاراً وقيماً مغايرة لما كانت ترضى به ، (١١١) ، أفاقَت لتجد نوعاً من عدم المبالاة ، قد أصبح يصنع تفكيرها وأرائها ونصرها وبها وكانت اللحظة الصاعقة التي عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة مندودة قد جعلتها هي الأخرى تبدأ تنبذ الناس في تفكيرها وتصرفاتها ، لم بعد مهما ان تطفر برضائهم عنها ، وبين يوم وليلة مלאها الشعور بأنها لا تملك في هذه الدنيا ولا يجب عليها أن تراعي سوى نفسها ، شعور لم يكن عميقاً خافياً ، لقد طير حتى لزميلاتها ولاحظوه واتخذوه مادة لتعليقاتهم .

المواقف وحدها والتجارب هي التي تطهر حقيقة الشخصية ، وقد خرجت (سناء) من هذه التجربة بنتيجة ...أن نطافتها لم تتحمل ثمنها ، ولكن أخاها هو الذي تحمل تلك النتيجة ، وبدأت تؤمن ببدء غريب ، مدأ الناش كاتب التي كانت تستنكره ، منطلق تبرير الخطأ والانحراف ، بالحجة الباطلة . حجة التضحية بالنفس من أجل الآخرين . وكأن انحرافه وقبوله الرشوة سيعود بالنفع والخير على الآخرين ، فهذا منطلق معكوس نتبناه الشخصية للتوافق مع الواقع الفاسد . وتطن أن نتبنيها إياه ستعقد مصالحه بينها وبين واقعها التي لم تستطع أن تعارضه أو تتمرد عليه .

في صفحة (١٢٢٣) . (إن ما يحدث لأسامة والاضطراب الخطير الذي اجتاح حياته بعد حرمانه من الامتحان هو الثمن (لنطافتها) ثمن لم تدفعه هي ولكن تحمله وسحق به هذا الصبي ، الذي لا ذنب له ، إنه كالنبات النامي لابد له من الحصول على الماء والغذاء . والا هلك ، ولابد لأهله أن يوفروا له هذا وبأي ثمن . وبأي وسيلة . لا يئمه أبدا نوع المصدر . ترى هل يغفر لها الآن أو حين يكبر وهي المسئولة عنه وعن عائلتها الصغيرة - إنها جعلته يقاسي من ضربة معطلة قاصمة ، فقط لتطل في نظر نفسها وفي نظر الناس محترمة نظيفة ؟ إنها تعرف أباء وأمهات يحللين الحرام ليوفروا لأولادهم الغذاء والكساء . (محمد الجندي) في كل قدرته لا يفعل أكثر من أن يوفر للحيش الجرار الذي أوجده على سطح الأرض حاجته سعنى آخر هو يضحى بذاته ويلوثها لينقذ أولاده . أيها إذن أكثر نطافة ؟

لقد أمضت ساعات الصباح تعطي الجندي دروسا في النظافة والصواب والخطأ ، لماذا لا تواجه نفسها الآن كما واجهته وتتعترف بالمعنى الحقيقي لما فعلته ؟ أليس معناه الحقيقي أنها كانت أنانية إلى درجة دفعتها للتمسك بذاتها وقيمها حتى ولو أدى الأمر إلى تشريد أخيها الصغير وأبنها وحبيبها الوحيد ؟ وأليس معناه الحقيقي أيضا أن (محمد الجندي) أقل منها أنانية بل هو ملاك إذا قيس بها ، مسيح صحن بذاته ولوثها ومرمطها من أجل أن ينشأ أبناءه الدين بحبهم نظافا صالحين) .

شيئان يدفعان الإنسان دفعا أن يستحل الحرام ، أولهما : قسوة الواقع .
وثانيهما : الآخرون الذين تربطهم به علاقات وطيدة .

فالإنسان لا قبل له بأن يتحمل واقعا قاسيا ، فهو يسعى إلى تغييره بأي طريقة شرعية أم غير شرعية ، فإذا كان المجتمع ونظامه على صواب ، سلك الإنسان الطرق الشرعية لتغيير واقعه ، أما إن لم يكن على صواب ، وفُرض على الإنسان فرضا بكل عيوبه ونقائصه ، فقد يسلك طريقا آخر مضادا للنظام ، ويكون ذلك على هيئة ثورة أو تمرد ، وإن لم يكن فليس ثمة إلا الانحراف والإفساد واصطناع كل السبل والحيل للحصول على المال .

والذي يدفع الإنسان إلى هذا ليس رغبة داخله ، فداخله نقي متمسك بالقيم والمبادئ ، ولكن الدافع خارجي متمثل في أن هناك أخا وزوجة وأولاد ... بحيث لو أبعد عن تلك المؤثرات لأنعدم الدافع ولأنعدم الانحراف ولبقى الإنسان على صلاحه ونقائه .

فكل شخصيات الرواية مدفوعة بدافع خارجي لخرق القانون وارتكاب العيب ، الباش كاتب من أجل الأولاد وزوجه . لأنه لا يستطيع أن يوفّر لهم ما يحتاجونه . حتى (محمد الجندي) الذي كان يجد متعة كبيرة في خرق القانون - أي قانون - يفعل هذا تحت دافع خارجي مثل في قصة والده في ريشه (١١٩) ،

(طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلي فوق رأسه ، منذ أن مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألا يستمع لنصح أحد سواء أكان مخطئاً أم مصيباً ، وسواء أكانت النصيحة من عاقل أو أحمق بل لقد جعل شعاره بوعي منه أو بغير وعي ، أن يخالف كل ما يقال له من نصائح وهوايته الكبرى أن يعصي القوانين ، إن القانون يظل عدوه اللدود إلى أن ينجح في خرقه ، التعليمات نظل شيئاً لا يطاق إلى أن ينح في العثور على وسيلة يستطيع أن يتحايل بها عليها وليس فقط القوانين واللوائح المكتوبة أكثر من هذا وأبعد ، كل ما يأخذ شكل القانون إذا تصادف ووجد ، رحام القيشاشي في أي دورة مباد يدخلها لامعا نطيفاً أنيقاً لا يستريح إلا إذا أحرح قلمه الكويبا وشخبط حتى يشوه المنظر . إذا جلس على مقعد عربية الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذي يفتحه ويعمله في جلد الكرسي وفي تخف شديد يقطعه حتى يطل القطن ويعمله في الجوارب حتى يظهر معدنها . وإذا أردت أن يكرهك كره العمى فانصحه نصيحة) .

وإذا كان الإنسان يرتكب ما يرتكبه من أجل الآخرين ، فهو في نفس الوقت يرتكب في حقهم أكبر الخطأ بما استحله اليوم لطروف قاهرة ودواعي مجبرة . واضعاً ما يشاء من تبريرات عقلية ، فإن ابنه أو حفيده مستقبلاً سيرتكب نفس الفعل

الخطا بدون أن تكون هناك دوافع وبدون أن يكون في حاجة إلى تبريرات ، لأنه سينظر إلى الفعل مجرداً عن ملابساته المختلفة.

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ عَمَلٍ قَدِيمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا تَأْتِرُهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف: ٢٢]

فإنسان لا يرث عن والديه مالا فقط نل يرث أيضا خلقا وقيما وصالى (١٣٤) (أفكار تطرق عقلها وتقلب تفكيرها رأسا على عقب ، وتجعلها تغوص وتغوص في التأمل على هدى هذه الخواطر ، إننا حلقة واحدة من سلسلة طويلة نصل فيها بين أبائنا وأجدادنا وبين أبنائنا وأحفادنا ، ونفعل هذا رغماً لأنه وضع لم نستشر فيه ، فقد خلقنا بما ورثناه عن أبائنا وأجدادنا من علامات وبما سنورثه لأبنائنا وأحفادنا . من أجل هذا نحن لا نملك أن نفكر في أنفسنا كأنفسنا فقط ن وغنما علينا أن نفكر فيها باعتبارها جزءاً من سلسلة وهمزة الوصل بين جيل مضى وجيل مقل ، بحيث نعي أن القرار الذي نتخذه لا يخصنا وحدنا ولكنه سيؤثر أعمق التأثير في حلقات السلسلة من بعدنا . وأولئك الذين يفكرون في أنفسهم (كأحرار) (كان موجود) (كان البداية والنهاية) أناس مخرفون يتجاهلون ألف باء الوجود الإنساني ، بمعنى أدق يقطعون بهذا النوع من التفكير أنفسهم من سلسلة البشر يصحون كالسابقان والأذرع المتبورة عمرها محدد بعمر خلاياها في حين وهو أعضاء ومكونات في السلالة البشرية عمرهم يبدأ قبل مولدهم بملايين السنين هي عمر البشرية قبل وجودهم ، وعمرهم يظل ممتداً بعد موتهم بملايين السنين هي عمر البشرية من بعدهم . من المهم إذن أن نتحدث عن أنفسنا وقيمنا والحرام

والحلال والعيب والملا عيب بالنسبة إلينا ، أن نضع في اعتدالنا أنها ستكون كذلك أيضا بالنسبة لأبنائنا ومن بعدهم بالنسبة لأحفادنا) .

فالخطأ الذي يرتكبه إنسان ما لا يحق بوحدة . وإنما يشمل ويشمل الآخرين فنتيجة الخطأ هنا مزدوجة . ولكن هل سقطت (سواء) من أجل أخيها حقا ؟ وهل يسقط الإنسان في العادة من أجل الآخرين ؟ لا . فالإنسان أكثر أنانية من ذلك فالأمر واضح وحاسم وقاطع فإذا أصاب الإنسان فمن أجل نفسه . كذلك إذا أخطأ فمن أجل نفسه أيضا . و(سواء) لم تسقط من أجل (أسامة) كما تقول .

(الآن وفي المساء وبعد أن احتضنت (أسامة) وشعرت بحسده الصغير الدافئ كتلة حبة مجسدة وملموسة بدأ الشك يتسرب إلى إيمانها داك ، ولم تعد واثقة كل الثقة أنها الأحسن والأنظف والأكثر شرفاً وسمواً) .

هي لم ترث لأسامة . وإنما رثت لنفسها وارنكت ما ارتكته لنفسها فحسب ولكن الإنسان لا يستطيع أن يواجه نفسه بالحقيقة . وإنما يرى الحقيقة متوارية في دوات الآخرين ن فهي لا يعينها (أسامة) وإنما تعينها ذاتها . كيف لم نستطع أن نوفر ما يحتاجه (أسامة) الأحرار المتعلق بذاتها . بغض النظر عن الآخرين بدليل أنها كانت تريد أشياء كأني فتاة في مثل سنها . والحصول على تلك الأشياء لا يتم إلا بطريق ملتو لا تستطيع أن تسلكه صراحة .

أو قل أن احتياحها لمثل تلك الأشياء والإحساس بها كان مؤجلاً . أو لم نعطه البعد الحقيقي لعدم تحقق الدات . فكيف تلبى احتياحات ذات لم تتحقق بعد ؟

وما حدث لأسامة ، أعطى لذاتها صورتها الحقيقية من عدم تحقق وحرمان
وفاهر المرفق كما لم نستطع سناء أن نواجهه وأثرت تأجيله أو رفعه من تكبيرها : (ورأسها
الصغير رغم شعرها الناعم الغزير ملئ بالأحلام أيضاً ن باقتناء الملابس الفاخرة
الأنيقة بحياة الثروة والغنى . بالطموح - أحلام تتغير هي الأخرى وتتجدد ...
إذ بينما كانت تحلم في العام الماضي بجواني من الجلد الفاخر الميطن بالفرو
في هذا العام هي تحلم بأن تبلغ في وظيفتها شأوا ومرتباً تستطيع أن تدفع منه
أقساط عربة نصر ١١٠٠ وتسوقها وحدها وتفسح أمها وتذهلها بها) .

قد تقول أنها أحلام ومطامح ، ولكن لا سبيل إلى تحقيقها بالطريق السري
قط . ووجدت (أسامة) لتعلق عليه سبب سقوطها ، كما علق (عزيزة)
سقوطها على جذر البطاطا في رواية (الحرام) . ويتضح ذلك من خلال موقف
سناء بعدما عرض (عبادة بك) عليها رشوة ، وكان التغيير الذي طرأ على سناء
هائلا . فليست هي التي رفضت من قبل قبول الرشوة بكل إباء وتصميم ن فبعد
حدوث ما حدث أيقنت إيقانا كاملاً بحاجتها إلى المال ، بأي طريقة ، فكل إنسان
في حاجة إلى تحقيق ذاته ، وهذا دافع طبيعي . ووجدت (سناء) أن طريقها
في تحقيق الذات لم يزددها إلا شحوباً وذبولاً ، وشعرت بنفسها منبوذة ، ملعونة من
جماعة المكتب ، ليس أمام جماعة المكتب فقط ، بل أمام أخيها ، ومن قبل أمام
نفسها ، إذن فهي على خطأ ألا نسرع النيار ، واستدلت الخطأ بالصواب ، (١٢٦)

(كان التساؤل هو ... ماذا يحدث لو أخذتها ؟ تساؤل شكدا يلقي ويعود يلقي

دون أن تنتظر إجابة عليه . ماذا يحدث لو أخذتها ؟

ماذا يحدث ؟ ماذا يحدث ؟

كل ما كانت تريد هو مهملة خاطئة نستطيع بطريقة ما أن نوقف هذا التساؤل المتواصل المزعج وتعدكر فيها ، ولكن بدا وكأن عقلا نفسه لا يريد هذه المهلة ولا يريد أن يفكر ويريد أن تتصرف بوحى من غرائزها البدائية الأولى الغرائز التي تنجذب إلى الدفء والنور وتنفّر من الأشياء لا بحسب قيمها الظاهرة المحسوسة ومعانيها التي تتلخص في معنيين اثنين... أهذا الشيء يضر جسدي حتى أهرب منه أم يعيده حتى أحصل عليه) .

أما وقد تركت الأمر للغرائز البدائية المنفلقة من كل قيود القيم ، فقد انقلبت إلى إنسان شره نهم لا يعنيه سوى ما يحصل عليه بأي طريقة وبأي أسلوب . (١٣١) . (ويحكم هذه الغرائز لو كان لص دخل الحجرة في ذلك الوقت لاستمات سناء دفاعا عن الرزمة بحكمها كانت قد أصبحت ملكها وبحكمها أيضا قد أصبحت المشكلة لا أن تأخذها أولا تأخذها وإنما هي كيف تدافع عنها وتمنعها من التسرب من حوزتها) .

وهكذا تخلت الشخصية عن كل قيمها وكل مبادئها بقبولها الرشوة من (عبادة بك) وقد أهمت نفسها أنها لا ترتكب خطأ ، واضعة تلك الأسوار حول ذاتها كي تدافع عنها ، إذا ما حالها شك أنها مدانة ، فكل ما تفعله من استخراج تصاريح الاستيراد لعبادة بك هو من صميم عملها ليس إلا ... فقد استشارت الناش كاتب وأشار عليها بملء خانات التصاريح وما هي تؤدي عملها (١١٤) : (هل حدث أن تحرك موظف أو موظفة واضعا بيع ذمته كهدف ؟ على

الإطلاق لم يحدث شيء من هذا . إنه دائما يتحرك موهما نفسه مؤكدا ومقسما ومؤمنا إيمانا لا يتزعزع إنه إذا يتحرك فإنما ليؤدي واجبه فقط لينجز عمله عسكري المرور الذي يقبل القروش العشرة حتى لا يحررك محضراً يوهم نفسه بأدلة يضعها أو يصطنعها أنك فعلا لا تستحق المحضروأنه بالغائه إنما يؤدي واجبه الذي يبلية عليه ضميره . وما العشرة القروش سوى مبلغ تطوعت أنت بدفعه سداجة منك وعطفا . إذ كان هو على أي الحالات لا ينوي تحرير المحضر) .

موقف يغالط الإنسان فيه نفسه . ذلك لأنه ليس له قدرة على ارتكاب الخطأ ن وليس لديه قوة على اجتنابه . ولا يفعل شيئا إلا بعد الاقتناع به . وهو إذا اقتنع فقد أزال كل الحواجز والعقبات من قيم ومبادئ . وإذا ما فعله فهو في حاجة إلى الدفاع عن نفسه وبذلك يستبدل الصواب بالخطأ . وتقلب المعايير . وهو في ذلك بر بأربع مراحل :

١- وضع تبرير للانحراف

٢- الاقتناع به .

٣- فعله .

٤- الدفاع عنه .

ويعمل الإنسان بعد ذلك ما يفعله سمس راجية وعقل مفتح وضمير مستقر وكما يقول
(عيادة بك) وهو في طريق نجاحه في إعراء (سناء) يقول الرسوة : (١٤٥) :

(علامة يعرفها جيدا إذا الخبرة قد علمته أن الشخص يبدأ في إقناع نفسه
أن فعله أمر لا غبار عليه يكون فعلاً وحقيقة قد بدأ يدافع عن الشيء الذي عليه
غبار مؤكداً لنفسه أن لا غبار عليه الدقة) .

والسقوط هنا ليس محدود مكان . ولكنه سقوط أبدي يلزم الشخص مدى
الحياة . فقد تخلى عن قيمه . وبخلىبه هدا عن نفسه . فهو لن يبع التصاريح . وإسا
باع نفسه ولن يقض ثمن نفسه . وعبادة بك كان يدرك هدا . لذلك يح خاحا متطوع
الطبر في إعراء سناء (١٤٦) . .. هنا لا يعنى قيمة ما يستحقه الشخص . ولكنه يعنى
على وجه الدقة قيمة ما يطرح هو في الحصول عليه . أي معنى آخر قيمة ثمنه
في نفسه ... عليك أنت أن تتمنه بأعلى بكثير مما توقع أو يستحق . ولا تحشى
الخسارة أو بعثرة نقودك فأنت لا تشتري إمضاء لمرة ... أنت تشتري شخصا بأكمله
ووظيفته ونفودا إلى زمن لا نهاية له) .

وإذا كانت ضريبة النطافة والتمسك بالضدير التي دفعتهما (سناء) هي
شعورها بالوحدة داخل إطار مجموعة المكتب وأنها منبوذة وملعوبة . وكأنها كائن
غريب وسط قوة لا تفهمهم ولا يفهمونها وبخليهم عنيا وقت حاجتها إليهم . وقد
كانت هناك مكافأة سطرها سناء على سعبا صميرها وبخليا عن قميا وقربها الرسوة من جماعة
المكتب (١٠١) . (وجدت سر صفقة الخميس قد بسررت إلى الزملاء والأعرء
... من الباشكاتب من خفاحة أو من عبادة نفسه . تفصيل لا يهمها في قليل أو كثير

والغريب أنها بعد برهة وجدت نفسها غير ساخطة ، أكثر من هذا سعيدة . بهذا التسرب لكان حائطاً سميحاً كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباش كاتب والجندي قد تهدم من أساسه .

ولم يسخر منها أحد ، ولم يحاول أحد أن يعايرها ، بالعكس أقبل الجميع عليها ، وكأنها نجحت في امتحان وانتقلت إلى خانتيم ، أولكأنها الأخت المريضة التي عُوفيت وشُفيت وأنضمت إلى العائلة والتحفظ زال والحرص في المعاملة اختفى والحجرة تحولت إلى مكان عذب خفيف الروح يغري بالإقامة) .

وكان هناك قانون يحكم تلك الجماعة ، أو من المحتمل أن يكون نفس القانون الذي يحكم أي مجتمع من المجتمعات ، قانون يعاقب المحسن وينيب المسيء ، فهرم الأخلاق هنا مقلوب ، الشرف والأمانة والضمير ، كل تلك القيم مدانة ، أما ما يناقضها فهي المعترف بها ، والسائرة في عرف تلك الجماعة . فقد باركت وكافأت الجماعة (سقوط) سناء بعد ساعات على ذلك السقوط ، وسعدت وأسعدتها حينما باعت قيمها ، بل باعت نفسها .

إعادة التشكيل :

موضوع القصة محفوف بالصراع والشد والجذب . فهو صراع على القيم والمبادئ . وصراع القيم والمبادئ أشد أحمى من صراع الأسلحة . فقد يخرح الإنسان من معركة الأسلحة مجروحاً ثم تتكفل الأيام بتضميد جراحه . أو يقتل أثناء المعركة وينتهي الأمر . أما صراع القيم فقد يُذبح الإنسانُ ويسيل منه الدم وهو حي ينام ويستيقظ ويأكل ويشرب ومع ذلك فهو مذبوح ؛ لأن قيمه قد انتهكت . والقيمة لا تتحدد بمعيار السلوك الفردي أو الجماعي فحسب . بل لجبل أو أجيال كثيرة ومن الصعب محوها . كما أن من العسير نشرها . فهي حرب ضروس لا هوادة فيها . والمر على هذه الصورة . أما كان من الأحدث للقاص أن يجعل شخصيته الرئيسية رجلاً بدلاً من امرأة ؟ فالمرأة ليس لها قدرة على الصراع والعراك والخصام . فالوضع الصحيح أن تكون الشخصية رجلاً قادراً جلياً على الصراع ... أما أن تكون الشخصية امرأة فهناك مغزى وهدف يقصده القاص من وراء ذلك .

القاص لا يريد أن يعطي الصورة الحقيقة لجزئيات الواقع المعاش . فهذا نوع من التسحيل (الفوتوغرافي) . ليس وراءه طائل . فمهمته أن يعيد تشكيل الواقع ليخلق في نفس القارئ موقفاً منه .

فالعادة والإلف للواقع يخلق نوعاً من الاستئناس أو المعاشة في وئام بين الإنسان وواقعه . وتأتي هنا مهمة القاص . وهي صدع هذا الإلف والاستئناس حتى يرى واقعه بدون زيف . وبعد ذلك يكون للقارئ موقف أما بالرفض أو التغيير . أو التمرد .

فقد أراد القاص أن يشع صورة الرشوة ، ويعطي لمعنى الرشوة نوعاً من التكنيف ن لتكون الجرعة مركزة تركيزاً يدفع القارئ لجنة من الجهات . فالنافذة التي اطل منها على الواقع الفاسد امرأة ، ومن عادة المرأة أن لا ترى النسب الحقيقية للأشياء ، وإنما تضخمها ، ولا ترى الحرام أو العيب شيئين من لوازم الواقع ، وإنما تواجهها في صورة أشنع وأكبر ، فتلك الأشياء لا تمس كرامتها أو سمعتها فحسب ، بل تمس شرفها ، كامرأة ، تلك المنطقة التي تهون الحياة وتهون المرأة إذا هانت . وهذا ما شعرت به (سناء) حينما أراد (الجندي) أن يشركها معه في بيع التصاريح . (٦٢) (الإهانة الحقيقية أنه لا بد قد وضع في اعتباره وهو يرسم خطته احتمالاً شبه أكيد أنها من الممكن أن توافق الإهانة الحقيقية هو ظنه شيئاً لهذا فيها ، وليست إهانة لشرفها فقط وكرامتها ، وإنما الإهانة العميقة هي أن هذا كله وجه إليها من رجل . الإهانة الأعمق والأخطر إنها فتاة - أنتى - وأن رجلاً هو الذي ظن فيها هذا الظن . وعملت بتلك الطريقة بما جرحت هذا الجرح العميق . لاعترفت أن ما حدث سنة أو تهمة عادية وجهت إليها إلى شرفها ، هي في الحقيقة إهانة لأنوثتها ، لشرفها ككاتبة أو كفتاة تعمل . إهانة ليس ردها الصفع أو الركل وكيل أقبح الألعاط ، فمهينها رجل ... الرجل لا يهمله أن يُسب أو يُشتم أو شخصيته أو مكانته ولكنها أبداً لا تخدش شرفه ولا تجرحه هذا الجرح الغائر الدامي ، ماذا تفعل وهي تحس بشرفها الأنثوي مهاناً ومجروحاً ، وهي عاجزة حتى عن الرد كرجل أمام رجل ؟ عن السب حتى أو الصفع ؟ أهنأك ما يقتل من الغيظ أكثر من أن تجد نفسها في موقف المعتدي على شرفها ، والعاجزة في نفس الوقت عن رده ؟ بكاؤها الشيء الوحيد الذي أفلت

منها يكاد يعميها ، فرد الإهانة التي تلحق بالشرف ردها بمجرد البكاء إهانة في حد ذاته . إهانة صادرة منها هي ، وأي مأساة أن ترد عدوان غيرك عليك وإهانتته لك بأن تتولى أنت الآخر إهانة نفسك أمامه . أي عار) .

فهني في دفاعها عن قيمها ومبادئها لا تدافع عن أشياء خارجة عن ذاتها أو عن أسماء أو عناوين . وإنما تدافع عن شرفها ، الذي يقرر أن تكون أو لا تكون تدافع عن وجودها ، والقاص يريد أن يساوي بين القيم والمبادئ والشرف بعينه فقد يتغاضى الإنسان عن أي وكل إهانة إلا تلك التي تمس شرفه وعرضه .

ويعرف (عمادة لك) أن من الصعب شراء المرأة ، سيما من المسور شراء الرجل (١٤٠) . وقد علمته الأيام والتحارب أن النساء أصعب في بيع ذمهن بعشرات ومئات المرات من الرجال . بل المرة الوحيدة التي فشل فيها وحاب كانت أمام إحدى المطلقات الكئيبات (

فالأمير مع المرأة عاية في العسر . فليس لديهن الجراءة ولا الشجاعة ولا التبرير الوحيد عند الرجل . فإذا كان الرجل يقادر على ارتكاب الخطأ وهو في نفس الوقت معتقد بتحريمه وتجريمه ، تلك القدرة ليست عن المرأة . فهي ليست بمرونة الرحولة مماثلة في القدرة على الانسلاخ من بين حواجر القانون والقيم . (١٤١)

(شخصيات هؤلاء العنقات المتماسكة المترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعا ... وكلنا قيم متحدة واحدة ... الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال والحلال أيضا واحد والعيب في العمل مثله مثل العيب في الشرف وما يعيب في البيت يعيب أيضا في المصلحة . كتلة مترابطة واحدة وفرق كبير بينها وبين قيم

الرجال الموزعة على أدراج ودوسيهات . بحيث يحيا الرجل صادقا بأكثر من مقياس وأكثر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ويستدعي - إذا اضطرته الحاجة المقياس الذي يناسبها) .

تلك الفروق بين الرجل والمرأة ، وإن كانت في صالح المرأة إلا أنها فروق ليست إيجابية بالرة ، فهي لم تدفع الشخصية الصالحة (سناء) أن تأخذ موقفا ضد جماعة المكتب ، لذلك لم تصمد الشخصية للصراع ، فحالما انهارت .